الفصل الخامس
مستقبل القضية والمنطقة

١ـ المعضلة العربية مَعَ إسرائيل:

كَيْفَ نغني للسلام عَلَى موسيقى الحرب ؟

يتسم الصِّرَاع العربي الإسرائيلي بخاصية متفردة وهِيَ أن للرأي العام دورًا واسعًا فِي قراراته عَلَى الجانبين العربي والإسرائيلي. وقَد ترتب عَلَى ذلك أن عمليات السلام فِيهِ قَد تسير مَعَ الحكومات فِي جانب ، بَيْنَمَا الرأي العام عَلَى الجانب الآخر وهَذَا هُو لب المشكلة. ذَلِك أن إسرائيل لا تريد فقط سلامًا تعاقديًا وإنَّمَا ظنت ـ ضمن حساباتها الخاطئة الكثير ـ أن الشعوب العربية كالقطيع أمام قرارات الحكومات تهش عَلَيْهَا بعصاها فِي الاتجاه الَّذِي الَّذِي تريد ، ورُبَّمَا استخلصت إسرائيل شيئًا مِن ذَلِك مِن إدراكها لنمط العلاقة التقليدي بَيْنَ الدكتاتورية والسلطة المستبدة وبَيْنَ المحكومين، وقدرة السلطة الَّتِي تتحكم فِي أرزاق النَّاس وأقواتهم عَلَى التحكم أيْضًا فِي عقولهم وقلوبهم وأقدارهم ورُبَّمَا فِي تحديد مصائرهم فِي الآخرة كَذَلِكَ.

ولَيْسَ سرًا أن هَذَا العامل كَانَ دَائِمًا ضمن مدركات الفهم الإسرائيلي وتقييمها للمنطقة. وهَذِهِ المنطقة بالذَّاتِ أصْبَحَت تشكل تناقضًا حادًا فِي هَذِهِ المدركات ، لأن إسرائيل تَدَّعِي أنَّهَا واحة للديموقراطية فِي المنطقة ونموذج يُحْتَذَى بِهِ يحل ذَلِك اللغز الَّذِي يجمع بَيْنَ المثاليات الغربية وَوَاقع التخلف العربي ، وأنَّهَا رمز لاستمرار الرسالة الْمُقَدَّسَة الَّتِي ينهض بهَا الغرب تاريخيًا للأخذ بيد الشعوب المتبربرة مِن أوهاد التخلف إلَى أنوار الحضارة. وإذَا صَحَّ أن إسرائيل تريد للمنطقة أن تنعم بديموقراطية حقيقة وأن يصبح للشعوب العربية زمام أمورها أو أن تترجم الحكومات مراحل الغضب ضِدَّ إسرائيل لَمَا توقف بركان الغضب الَّذِي يلتهم إسرائيل. وقَد ظنت إسرائيل أنَّهَا قادرة عَلَى لجم الحكومات العربية ومِن خلالها الجماهير العربية أوإحداث وقيعه بَيْنَ الجانبين تلهي كِلَيْهما عَن التعامل مَعَ سياساتها.

يتسم الصِّرَاع بَيْنَ العرب وإسرائيل كَذَلِكَ بأن إسرائيل المعتدية دَائِمًا والَّتِي يمثل قيامها عَلَى الغصب رمزًا لِهَذَا العدوان المستمر قَد برعت فِي صياغة سياسة إعلامية للخارج تظهرها بمظهر الوادعة والساعية إلَى السلام والاستقرار بَيْنَمَا العرب هم الَّذِينَ يدقون طبول الحرب، واعتمدت

إسرائيل فِي ذَلِك عَلَى اختيار مفردات خطابها الإعلامي والسياسي بعناية وبطريقة تَلَقَّى قبولاً فِي الثقافة الغربية يساعدها عَلَى ذَلِك أن الحركة الصهيونية بمفهومها الأعمق والأقدم تاريخيًا مِن مشروع هرتزل قَد مهدت لِنَفْسِهَا مكانًا مرموقًا فِي الثقافة الأُورُبِّيَّة مُنْذُ مطلع عصر النهضة وقبل نشأة الدُّوَل القومية والولايات الْمُتَّحِدَة.

هَكَذَا تمرست إسرائيل عَلَى إطلاق خطاب براق فِي وقت تمارس فِيهِ العدوان والْقَمْع ضِدَّ العالم العربي ، فانقلبت الآية عِنْدَ الغرب وأصْبَحَ المعتدي هُوالضحية وضحية العدوان هُو سبب القلق ومصدر الدمار. وعِنْدَمَا تنبه العالم العربي إلَى هَذِهِ الحقيقة بَدَأ يحاول استبعادها فطبقها فِي المرحلة الثانية مِن الصِّرَاع مُنْذُ مؤتمر مدريد بشكل يقطع بسطحية وسذاجة لا تتفق مَعَ الطاقات العقلية والإبداعية للعالم العربي. اكتشف خبراء الإعلام العرب أَنَّهُ يجب التركيز فِي الخطاب العربي عَلَى عدد مِن المفردات الَّتِي تكشف للعالم الخارجي أن هَذَا الخطاب أصْبَحَ خطابًا سلميًا لا حربيًا كَمَا كَانَ فِي السابق، بل وأوصى بعضهم بِأَن يمتد هَذَا الخطاب إلَى الثقافة الْعَامَّة والشعبية والمدرسية .وتلقت إسرائيل الفرصة فدفعت فِي أوساط اليونسكو وفِي برامج المعونة والتعاون مَعَ العالم العربي وخَاصَّة مصر أكثر الأطراف العربية اتصالاً بالحرب والسلام فِي المنطقة نحو مشروع ثقافة للسلام يشيع فِي نفوس الكبار والصغار رغبة السلام واستئصال توجه العدوان والعداء والحرب، بحَيْثُ تتردد بمناسبة ودُونَ مناسبة مصطلحات السلام والتنمية والمودة والألفة ونبذ الحرب والدمار ومرادفاتها.

ولَمَا كَانَت إسرائيل كسائر دُوَل الغرب ـ تعتمد عَلَى قياس المشاعر بِمَا يعبر عَنْهَا مِن مفردات وألفاظ وتستخدم فِي هَذَا القياس نظرية تحليل مضمون الخطاب العربي بطريقة حسابية، فَقَد استراح الخبراء العرب إلَى أن الدراسات قَد سجلت ترديد كلمة السلام ملايين المرات فِي خطب الساسة والرؤساء وفِي الندوات والمؤتمرات وفِي المقررات الدراسية بَلْ وفِي الأغاني الشعبية الَّتِي راجت وسط مزاج ثقافي واجتماعي يشجع الهبوط ولا يكترث لَمَا يقال فِي هَذِهِ الأغاني، وهُو مزاج أتاح لعشرات أن يبرزوا فِي الساحة الفنية العربية لَمْ يكونوا يحلمون بِمَا حققوه فِي مناخ يلتزم المعايير الصارمة للإبداع الفني والثقافي ، مِثْلَمَا سمح هَذَا المزاج بحالة مِن الإحباط الثقافي

والإبداعي بسبب عشرات الآثار والظواهر التي تسللت إلى المجتمع من خلاله، وأخطرها انحراف نتائج ومنافسات الجوائز الثقافية وانحسار قيمة الثقافة ودورها في المجتمع لصالح طغيان المكاسب المادية وطرقها المريحة ، فانسابت الفنون والآداب الهابطة وبدأت تمس أعصاب القيم الدينية والأخلاقية مما جعل المجتمع يضيق في هبات متفرقة للدفاع عن هذه القيم بشكل غير متسق .

ولا أظن أن المتابع للساحة الثقافية والفنية والعربية يخطئ الآثار المدمرة لهذا التوجه والسقوط المزري الذي وصلت إليه بحيث لم يعد المجتمع قادرا على التمييز بين ما يقال وما لا يقال أوما يكتب وما يذاع وما حظر إذاعته ونشره رعاية للأخلاق العامة ورسالة الثقافة الحقة .

يكفي أن نشير إلى آلاف الأشرطة التي تغزو الأسواق وعشرات الأسماء التي تعجز الذاكرة عن التقاطها والتي ادعت أنها دخلت الفن من " الدكان وليس من الحمام " وهذه في ظنهم ترقية للمدخل إلى الفن. كما نشير إلى كلمات ذات دلالة في السياق الذي نعالجه من مثل: "بأحب السلام كأنه وليدي وباصحا وأنام على صوت حبيبي" يقصد السلام أيضا.

وتشير تقارير حديثة إلى أن الدراسات الإسرائيلية قد سجلت ضمن تحليلها لمضمون هذه الأشرطة الاتجاه إلى كراهية إسرائيل وعدم جدية العرب في السلام خلافا لما يردده الزعماء العرب، واستندت الدراسات إلى واحدة من هذه الأشرطة التي تقول " بأحب عمروموسى وباكره إسرائيل " إشارة إلى السيد عمروموسى وزير الخارجية المصري الأسبق والتقابل بين إسرائيل وعمروموسى يقوم على ما رسمه خيال مؤلف الشريط من أن عمروموسى يجسد التصدي المصري الصارم لإسرائيل وهو خيال كما نرى يتسم بالسذاجة وإغفاله للحقيقة وهي أن وزير الخارجية يعبر عن موقف دولة يتولى رئيسها رسم سياساتها وتعبر أجهزتها جميعا عن هذه السياسات، ولكن وزير الخارجية هو الأكثر ظهورا في الإعلام بحكم تسارع الأحداث .

يتسم الصراع العربي الإسرائيلي من زاوية ثالثة بأنه صراع يتذبذب على قاعدة أصبحت واضحة وهي أن السلام الحقيقي العادل هو مطلب الشعوب العربية ولكن تلاعب إسرائيل بهذه

الآمال العربية أثار الشكوك حول حقيقة السلام الممكن. وبالطبع فإن اعتماد إسرائيل على تحليل المضمون دون أن تدرك أنها تغالط نفسها قبل أي طرف آخر يكشف عن سذاجة إسرائيل نفسها وكأنها تريد أن تفتك بالفلسطينيين وتمرح في سماء المنطقة بلا خجل أو رادع ومع ذلك يسبح العالم العربي بفضائلها وبرسالتها الحضارية وكأن ما تقوم به ضد شعوب المنطقة، الظاهر منه والخفي، تنفيذ لتكليف مقدس حتى لا يبقى غيرها بعد أن تبيد ما حولها. وإذا كان شارون هو الأقدر على تجسيد هذا المنطق الإسرائيلي دون مواربة فإن المشكلة التي يجب أن تؤرق العالم العربي حقا هي: كيف يواجه إسرائيل والعالم الخارجي بمنطق متماسك يؤكد فيه أن مقاطعة الطغيان الإسرائيلي ليس عودة إلى لغة الصراع من جانب العرب بينما إسرائيل تجد في أعمال الإبادة ، كما يؤكد أن رغبة العرب في السلام الحق للجميع لا يعني أن العرب سوف يخضعون لابتزاز إسرائيل، وأن الكف عن استخدام كلمة الحرب لا يجدي فتيلا في هذا السياق ، وإلا كيف نفسر انحياز الغرب للموقف الإسرائيلي في الوقت الذي تقوم فيه إسرائيل بكل صنوف الإبادة بينما تقوم إسرائيل بترديد شعارات الحرب والتدمير ، وعلى الجانب الآخر لا يزال العرب يرددون شعارات السلام ويستعيذون بالله من الحرب وويلاتها .

٢ـ الشرق الأوسط في القرن الحادي والعشرين

(رؤية أمريكية)

ترجع أهمية الشرق الأوسط ـ عبر العصور ـ إلى أسباب متنوعة كَانَت السبب الرئيسي فِي أنَّ عوامل الصراع الخارجية عنه هِيَ الَّتي تحرك عوامل الصراع الكامنة فِيهِ .

أمَّا مُنْذُ بداية الخمسينيات ثُمَّ السبعينيات تحولت أهمية الشرق الأوسط الاستراتيجية وسط توترات الحرب الباردة، إلَى بعدين جديدين تَمَامًا جعلا الشرق الأوسط مركز الخطر عَلَى سكانه وعَلَى العالم، وهذان البعدان الجديدان هُمَا : البترول وإسرائيل وتنامي ارتباطاتها مَعَ الولايات المتحدة، فَإذَا أضفنا إلَى هَذَيْن البعدين الأبعاد الاقتصادية والتجارية والثقافية والدينية السياسية لاتضح لَنَا كَيْفَ أنَّ هُنَاكَ مَا يبرر قيام مركز البحوث الغربية بمحاولة تصور شكل الشرق الأوسط خلال ربع القرن القادم، وتحديد سياسات الغرب الأمنية والاجتماعية (الهجرة واللجوء والاختلاط الديموغرافي والثقافي) والاقتصادية فِي ضوء المعطيات الْمُفْتَرَضَة .

وطبيعي أنْ تختلف مناهج اقتراب هَذِهِ المراكز مِنْ صورة الشرق الأوسط الجديد وفق مصادر اهتمام كُلٍّ مِنْهَا. ولا يخفى مَا لأهمية التعرف عَلَى تصورات هَذِهِ المراكز وأنْ تقوم مراكزنا البحثية أيْضًا بدراسة تحولات المنطقة والعالم مِنْ حولنا عَلَى أساس موضوعي ؛ حَتَّى نكون عَلَى بينة بمَا يدور حولنا، لَعَلَّنَا نتحذ مِنَ السياسات ونعد مِنَ المواقف مَا يَكُون مفيدًا لَنَا.

ولا شَكَّ أنَّ مناهج دراسة المناطق المتفجرة مثل الشرق الأوسط تتطلب الكثير مِنَ الحذر عِنْدَمَا يتعلق الأمر بالذَّاتِ بالدراسات الأمريكية الَّتي لاحظنا أنَّهَا تتصف بثلاث صفات واضحة: الأولى : أنَّهَا دراسات استطلاعية Pilot تهدف إلَى جس نبض الآخرين تجاه الفرضيات والنتائج الَّتي تقدمها، والثانية : أنَّهَا تتحلى – ظاهريًّا – بقدر معقول مِنَ الطابع العلمي، مِمَّا يدفع الآخرين إلَى القبول والتصديق، خاصة فِي ظل غيبة دراسات مستقبلية مماثلة فِي العالم العربي، وأخيرًا فَإنَّ هَذِهِ الدراسات تحاول تعميق الشعور بِأَنَّ مَا تراه هُو مَا سيحدث ولا سبيل إلَى دفعه، وغاية مَا يجب عَلَى الآخرين مِنْ أبناء المنطقة هُو الدعاء إلَى الله بِأَنْ يلطف فِي مواجهة القدر دُونَ أنْ يطلبوا رده أوتعطيله .

ولحسن الحظ فَقَد عثرت وأنَا أحصر الدراسات الأمريكية بالذَّاتِ الَّتي تقدم صورة مستقبلية للشرق الأوسط مِنْ وجهة نظر أمريكية، عثرت عَلَى أعمال ندوة نظمتها قيادات أكاديمية لبنانية وعربية فِي أواسط عام ١٩٩٧ م فِي فورة ظهور العولمة، ونُشِرَت مُحَرَّرَة بقلم عالم لبناني معروف هُوالدكتور " ملاط " وصدرت فِي بريطانيا عام ١٩٩٨م، عَلَى أنَّ الدراسات الأمريكية الَّتي صادفتها فِي الشهور الأخيرة مِنْ عام ١٩٩٨ م قَد تبعتها دراسات أخرى قامت بهَا مراكز بحثية بتكلفة مِنْ وزارات أمريكية كالدفاع وغيرها، ورأت المصلحة نشرها، رُبَّمَا لتحقيق الأهداف السالف الإشارة إلَيْهَا .

والدراسة الَّتي بَيْنَ أيدينا أعَدَّهَا " تشارلزوليم ماينز " بذات عنوان هَذَا المقال ونشرها فِي عدد الشتاء عام ١٩٩٨ م مِنْ مجلة الشرق الأوسط Middle East Journal ووضع لنتائجها تحفظًا هامًا نقله عَنْ " دزرائيلي " رئيس وزار بريطانيا فِي القرن التاسع عشر، ومؤداه أنَّ التوقع عادة قَد لا يصادف الواقع، ولَكِن البحث ينطلق مِنْ عوامل موجودة يتوقع أنْ تستمر وأنْ تحدث تأثيرًا عَلَى تاريخ المنطقة فِي ربع القرن القادم أي حَتَّى عام ٢٠٢٥ م، وهَذِهِ العوامل أربعة وهِيَ: الزيادة السكانية، وانتشار المعرفة، والوعي السياسي، والموارد الطبيعية .

أولاً ـ الزيادة السكانية :

يُشِير التاريخ إلَى أنَّ أعظم القوى فِي العالم كَانَت كثيرة السكان، فَلَيْسَ صدفة أنَّهُ خلال التاريخ المكتوب كَانَت الصين أهم دَوْلَة فِي العالم وأنَّ الصين تدق الآن بوابة التاريخ، كَمَا أنَّهُ خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كَانَت فرنسا أكبر دَوْلَة أوربية، وأنَّهَا وضعت لأُورُبَّا حِينَذَاكَ قيمها الثقافية والسياسية، حِينَمَا أسهم فِي مكانتها : سكانها ونوعية رجالها ووحدتها. وإذَا كَانَت الولايات المتحدة هِيَ أعظم قوة فِي العالم اليوم فَقَد يعزى ذَلِك إلَى نوعية قياداتها، لَكِنَّهُ يرجع أيْضًا إلَى التزاوج بَيْنَ كبر عدد سكانها وأعلى مستوى تكنولوجي عرفته البشرية. كَذَلِك الحال فِي الشرق الأوسط، يُتَوَقَّع أنْ تحدث الزيادة السكانية الإسلامية أساسًا أعظم التحولات فِي التاريخ.

فَفِي عام ١٩٨٠ شَكَّلَ المسلمون ١٨ ٪ مِنْ إجمالي سكان العالم، وبحلول عام ٢٠٢٥ م قَد تصل نسبة المسلمين إلَى ٣٠ ٪ (مبنية عَلَى إحصاءات الأمم المتحدة عام ١٩٩٤ م، وسوف يستمر معدل النمو نفسه فِي الشرق الأوسط، حَيْثُ يُتَوَقَّع أنْ يصل عدد سكان مصر إلَى حوالي ١٢٠ مليونًا عام ٢٠٥٠ م، بَيْنَمَا سيصل سكان السعودية إلَى ٦١ مليونًا، وسوريا حوالي ٥٠ مليونًا، ومثلها العراق، أمَّا إيران فسيصل سكانها منتصف القرن القادم أيْضًا إلَى ٦٠ مليونًا، وأفغانستان حوالي ٦٢ مليونًا – كَيْفَ تؤدي هَذِهِ الزيادة السكانية فِي المنطقة إلَى تغيير تاريخ المنطقة ؟، يؤكد الباحث أنَّ هُنَاكَ اتجاهًا فِي الكثير مِنَ الدُّوَل الغربية يجعل الشرق الأوسط معادلاً للعنف السياسي، ولِهَذَا السبب فَهُو يفضل النظر إلَى صورة التغير الديموغرافي بالمنطقة ككل، حَيْثُ يرى أنَّ ارتفاع نسب الشباب يضع ضغوطًا عَلَى النظم السياسية، ويرى أنَّهُ لَيْسَ صدفة أنَّ أكثر الدُّوَل الَّتي تعرضت خلال السنوات الماضية للعنف هِيَ مجتمعات إسلامية فِي إيران وتركيا وألبانيا والجزائر والبوسنة. وينقل عَنْ " صمويل هنتنجتون " صاحب صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام الدَوْلي حكمه بأنَّ الشباب فِي الثقافات الإسلامية ينفرد دُونَ الثقافات الأخرى بالعنف، رغم أنَّ أطفال الحرب العالمية الثانية فِي أُورُبَّا هم أصحاب ثورات الشباب فِي الستينيات. ويرى الباحث – فِي ضوء ذَلِك – أنَّ اثنتين مِنْ أعمدة الوجود الأمريكي فِي المنطقة وهُمَا مصر والسعودية يتعرض نظاماهما لضغوط الشباب بشكل حاد. ويخلص الباحث مِنْ ذَلِك بالنتيجة الَّتي يريدها وهِيَ أنَّ الَّذي يهدد مكانة الولايات المتحدة فِي الشرق الأوسط هُو النمو السكاني والدُّوَل الَّتي تواجهه، أكثر مِمَّا تهددها الدُّوَل الشريرة Rogne states .

ثانيًا ـ العامل المعرفي والتكنولوجي :

سوف تعاني دُوَل الشرق الأوسط مِنْ ضغوط قاسية بسبب دور التكنولوجيا فِي إحداث تحول فِي العلاقة بَيْنَ الحكومات والشعوب، فخلال المائة عام ١٨٧٠ م – ١٩٧٠ م قدمت التكنولوجيا مساندة قوية للاتجاهات السلطوية المركزية، فِي السيطرة عَلَى الأطراف (التليفون – الراديو... إلخ). أمَّا الآن فَإنَّ التكنولوجيا تساعد الاتجاهات اللامركزية، حَيْثُ تقوي الأطراف عَلَى

حساب المركز. ولِذَلِكَ فالشرق الأوسط يتعرض للاضطراب بَيْنَ الاتجاهات المركزية الَّتي انتهت فِي أُورُبَّا، والاتجاهات اللامركزية الَّتي تتعرض لَهَا المعمورة كلها، وسَوْفَ يؤدي ذَلِك إِلَى شيوع القلق وعدم الاستقرار ـ خاصة أَنَّهُ يدخل فِي هَذِهِ العملية البترول والماء ـ وإِذَا كَانَت حكومات المنطقة قَد أخفت كُلَّ شيء عَلَى شعوبها وواجهتها بالقسوة والبطش، فَلَن يَكُون ذَلِك مُمْكِنًا فِي السنوات القادمة، حَيْثُ تسود الشفافية، ويصعب أنْ تخفي الحكومات أخطاءها وعثراتها، وسوف تحاول ذَلِك دُونَ جدوى فِي ظل زوال الأمية وانتشار المعلومات .

ثالثًا ـ ارتفاع الوعي السياسي :

قَد يرتفع عدد الدُّوَل الغنية فِي الجنوب، لَكِن الجنوب لَنْ يسد الفجوة التكنولوجية مَعَ الشمال فِي العقود القادمة، بَلْ سوف تتسع الفجوة بَيْنَ الشمال والشرق الأوسط، ومَعَ ذَلِك ستقل قدرة الشمال عَلَى السيطرة عَلَى الشرق الأوسط، بسبب ارتفاع مستوى الوعي السياسي فِي الجنوب، وقَد يعوض هَذَا الوعي السياسي أثر الفجوة التكنولوجية. فَقَد لُوحِظَ خلال القرن الماضي أنَّ الشمال لَمْ يسيطر عَلَى الجنوب لأَنَّهُ كَانَ فقط متفوقًا عسكريًّا عَلَيْهِ، ولَكِن لأَنَّ الجنوب كَانَ يتسم بالخنوع السياسيPolitical acquiescenee، حَيْثُ قبل الجنوب النظم الَّتي فرضها الغرب، ولِذَلِكَ سقطت هَذِهِ النظم عِنْدَمَا قرر الجنوب رفضها وحقق استقلاله تباعًا.

وقَد نجح المسلمون فِي الشرق الأوسط فِي التحرر مِنَ الاستعمار بسبب ارتفاع الوعي السياسي، وسوف يتعمق هَذَا الوعي فِي القرن الجديد، مِمَّا سيعدل علاقات القوة بَيْنَ الشمال والجنوب فِي العالم كله، وقد يجعل الجنوب أكثر ثقة، بَيْنَمَا يصبح الشمال فِي كرب ظاهر، فَقَد ازداد رفض الجنوب لتدخل الشمال، كَمَا لَمْ يَعُد الشمال سعيدًا وراضيًا بِأَنْ يضحي بأبنائه فِي الجنوب بدافع المجد، وهتاف الجماهير، وأصبح أكثر إدراكًا للتضحيات والخسائر، ورُبَّمَا يفسر ذَلِك بالنضوب الديموقراطي فِي الشمال، ولِذَلِكَ علاقة باللجوء إِلَى الحروب الجوية الَّتي يُمْكِن أنْ تؤدب لَكِنَّهَا لا تحقق السيطرة والغلبة، فَهِيَ نجحت فِي كسب حرب الخليج لَكِنَّهَا لَمْ تغير حكومة بغداد، كَمَا يُمْكِن للضربات الجوية أَنْ تدك جروزني عاصمة الشيشان، لَكِنَّهَا لَمْ تَتَمَكَّن مِنْ إخماد جذوة الطموح إِلَى الاستقلال عن الاتحاد الروسي، كَمَا أنَّ القصف الإسرائيلي يُمْكِن أنْ يصيب قرى جنوب لبنان، لَكِنَّهُ لَمْ يوقف المقاومة للاحتلال .

ويتوقع الباحث أنْ يزداد انتشار السلاح فِي العالم، وسوف يفشل الغرب فِي منع الانتشار النووي، وقَد يلجأ إلَى نظرية حظر الضربة الأولى النووية، ولِذَلِكَ يتوقع الباحث : أنَّ إسرائيل لَنْ تظل الوحيدة الحائزة عَلَى الأسلحة النووية فِي الشرق الأوسط، وأنَّهَا مسألة وقت ويقود هَذَا الاستنتاج الباحث إلَى التساؤل حول : مَا إذَا كَانَ اتجاه دُوَل الشرق الأوسط إلَى الاضطراب الداخلي بسبب النمو السكاني يعني أنَّهَا ستصبح أكثر عدوانية عَلَى المستوى الدَوْلي بسبب حيازتها لأسلحة الدمار الشامل ؟، يقرر الباحث أنَّهُ يشك فِي ذَلِك، ويؤكد أنَّهُ رغم ارتكاب بعض النظم جرائم فِي حَقِّ شعوبها وشعوب الدُوَل المجاورة، إلا أنَّ الإسلام بشكل عام – لَمْ يتجاوز حدوده فِي إطاره الجماعي طوال العقود الماضية، بَلْ يقرر أنَّ الدُوَل الإسلامية هِيَ الَّتي تعرضت للعدوان ولَيْسَ العكس، وسبب ذَلِك لا يرجع إلَى فضل كامن فِي العالم الإسلامي، وإنَّمَا لضعف العالم الإسلامي وسيظل كَذَلِك، وأنَّهُ – باستثناء الإرهاب – لا يملك العالم الإسلامي وسيلة أخرى لتهديد غير المسلمين، حَتَّى ولَو تَمَلَّكَ أسلحة الدمار الشامل، فالإرهاب أسلوب للمقاومة ولَيْسَ للغزو أو السيطرة. ويخلص الباحث إلَى أنَّ الشرق الأوسط سوف يطور قدراته عَلَى مقاومة الآخرين لا محاولة السيطرة عليهم .

رابعًا ـ الموارد الطبيعية :

كَانَت الحرب تاريخيًّا أداة لجلب الثروة، فَكَانَ النصر يعني مزيدًا منَ الأرض والشعب، أي الثروة. أمَّا بَعْدَ الحرب الثانية فَإنَّ الاستيلاء عَلَى الأرض والناس لا يعني سوى مقاومة المستولي والانتصار عَلَيْهِ رغم تفوقه العسكري (إنجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا). وقَد أظهرت الدُوَل الأسيوية أنَّهُ يُمْكِن جلب الثروة عَنْ طريق التنمية الداخلية ولَيْسَ عَنْ طريق القوة والتوسع، وهَذَا النمط سيمثل تحديًّا لدول الشرق الأوسط فِي القرن القادم، حَيْثُ يستمر الصراع عَلَى النفط والماء وللحرب عائدًا ظاهرًا فِي تحقيق الثروة والنفوذ فِي اعتقاد زعمائه.

فلو كسبت العراق حرب الخليج لكانت ثروته النفطية أكبر، ولَو احتفظت إسرائيل بالجولان والضفة؛ لضمنت كميات إضافية مِنَ المياه، ولِذَلِكَ سيظل الصراع عَلَى الماء والنفط فِي المنطقة فِي القرن الجديد. وتشير الإحصاءات الأمريكية إلَى زيادة الاستهلاك العالمي للنفط عام ٢٠١٥ م مِنْ

٧٧,٨ مليون برميل يوميا إلى ١٠٤,٦ مليون مما يدفع الخليج إلى مضاعفة إنتاجه، وسيأتي معظم الطلب من آسيا مما سيدفعها إلى مزيد من الاهتمام بأحوال الخليج. ويتوقع أن تتضاعف حاجات اليابان والصين البترولية واعتمادها على بترول الخليج، ولذلك ستنشب منازعات حول النفط بين الصين والولايات المتحدة في الشرق الأوسط، لعدم قبول الصين بوصاية واشنطن على احتياجاتها البترولية، كما قبلت اليابان.

أما الماء فقد توقعت المخابرات الأمريكية منذ الثمانينيات الصراع بسببه، وذلك أن إسرائيل سوف تتجاوز ما لديها من المياه بحوالي ٢٠ ٪، وسوف يتزايد حجم سكانها ليصل إلى ١٧ مليونا عام ٢٠٥٠ م، مع ندرة المياه القائمة حاليا. ومعنى ذلك أن الحروب سوف تقع بسبب نقص النفط والمياه، في ضوء التزايد السكاني. وسوف يصبح الماء قضية محورية في السلام العربي الإسرائيلي. ينتهي الباحث في هذه النقطة إلى أنه في مناطق العالم الأخرى تصبح القضايا الأساسية هي التنمية الداخلية وتوسيع رأس المال البشري حتى يمكن للسكان الإسهام في الاقتصاد العالمي، أما في الشرق الأوسط عموما فإن القضايا الأساسية تظل هي الأمن الخارجي، وبذل الجهد لضمان الموارد الكافية .

يتضح مما تقدم أن الباحث رسم صورة قاتمة واستعان بتطور العوامل الأربعة السالف إيضاحها، التي تعمل كلها في اتجاه التوتر داخل الدول والحروب والصراعات بين الدول نفسها دون أن يدلنا على طريقة لعلاج هذه التحديات المحتملة .

ونحن نرى : أن الباحث قد بالغ كثيرا في تقدير عدد السكان، واعتبر العامل السكاني حاسما في قوة الأمم، بينما قد يكون عبئا ما لم يتحول الكم فيه إلى كيف. ولوحظ أيضا أن البحث لم يعتمد وحدة واحدة للقياس، فهو تارة عام ٢٠١٥ م، أو٢٠٢٥ م، أو٢٠٥٠ م، كما لم يحدد نطاق الشرق الأوسط، وبدأ تحيزه واضحا ضد خطر زيادة المسلمين. أما إسرائيل فقد أغفلها من الحساب إلا فيما يتعلق باحتياجاتها المائية، وكأن جيرانها ملزمون بتوفير هذه الاحتياجات الناجمة عن الهجرة اليهودية .

ونظرا لخطورة هذه الرؤى، فقد يكون من المناسب أن نشير إلى وجهة نظر عربية تقيس الأمور بمنظور متوازن، فمن الطبيعي أن ينظر كل باحث من الزاوية التي تهم فرضيات بحثه .

ونحن نرى بشكل عام : أن البحث الذي استهدف استكشاف تحديات المصالح الأمريكية في المنطقة، يمكن أن يكون له منظور مختلف عندنا، فنحن نريد لمنطقتنا التعاون والازدهار وألا تكون مطمعا للآخرين .

فالثابت أن تعاون إسرائيل مع العالم العربي وقبولها بوضوح طبيعي وامتثالها لأحكام القانون وروح حسن الجوار، وتعاون أمريكا وأوربا في تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة سلام وتعاون وأمن سوف يجعل المنطقة قادرة على مواجهة أية تحديات تتعلق بتطور دولها الداخلية. فازدهار الديمقراطية وحقوق الإنسان في ظل تسوية عادلة بعيدة النظر للصراع العربي الإسرائيلي، وتحرير الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل والتفرغ للبناء ووقف الهجرة اليهودية، كلها متطلبات أساسية لشرق أوسط مزدهر في القرن الجديد. ولذلك نعتقد أن العامل الإسرائيلي وطبيعة السياسات الأمريكية في المنطقة هي المهدد الأساسي للشرق الأوسط .

فضلا عن غياب خطط محددة للتطور الديمقراطي والاجتماعي والاقتصادي للمنطقة، وأخيرا نأمل أن تتضافر الجهود العلمية العربية لبحث مستقبل المنطقة خلال القرن القادم .

٣ـ القضية الفلسطينية

من الانتفاضة الى الاستقلال

في كتابه الآخير رأى د. عبد الوهاب المسيري أن الانتفاضة تنتقل إلى مرحلة الثورة ، ونحن نرى أن الانتفاضة التي أكدت ثقافة المقاومة سوف تفضي حتما إلى الاستقلال. فالظاهر أن اسرائيل التي تصورت مسارا" معينا" لاتفاق أوسلو وماطلت كثيرا" من ١٩٩٣ الى ١٩٩٦ عن طريق الدخول في تفاصيل وإشكاليات لم تكن تتوقع أن المجتمع الدولي المتعطش لإنهاء الصراع في المنطقة ولو بقليل من العدل للفلسطينين سوف يتمسك بهذا الخط، ولذلك يمكن أن نقسم موقف اسرائيل من التسوية رغم ما فيها من ظلم لأصحاب الحق الأصليين في الفترة من ١٩٩٣ حتى ٢٠٠٢ **إلى ثلاث مراحل**:-

المرحلة الأولى : من ١٩٩٣ الى ١٩٩٦ وهي المرحلة التي سارت فيها عملية السلام وتبلورت في اتفاقات تفصيلية وكان يتعين أن تنتهي المرحلة الثانية من إعادة الانتشار للقوات الاسرائيلية في نهاية عام ١٩٩٥ ولكن اسرائيل أبت أن تسير في هدوء صوب هذه النتيجة ، ولذلك تكفل نتنياهو وباراك بتعطيل عملية السلام بصرف النظر عن سلسلة المفاوضات التي تدخل في إطار المماطلات الإسرائيلية حتى عام ٢٠٠٠.

يظهر أيضا أن اسرائيل أرادت أن تضع حدا" نهائيا" لهذه العملية وكأنها قدرت أن الفلسطينيين قد حصلوا على أكثر مما يستحقون ولذلك رتبت لزيارة شارون حتى تهيئ المناخ المناسب للتجميد العملي للمسيرة والعودة عنها. ولذلك لا يمكن القول إن زيارة شارون للمسجد الأقصى كانت مصادفة، أو إن اسرائيل لم تكن تتوقع رد الفعل الفلسطيني. وربما يكون العامل الوحيد الذي استجد هو أن شارون قد حصل على أعلى نسبة من الناخبين في تاريخ اسرائيل بناء على برنامجه المعلن وهو القضاء على كل ثمار أوسلو والتخلص منها والعودة الى ما قبلها. واللافت للنظر أن الشعب الإسرائيلي نفسه بجميع اتجاهاته لا يختلف على هذا البرنامج وكأنه يريد الأرض والسلام وفرض الهيمنة دون أن يقدم شيئا، وهذا هو معنى برنامج شارون الذي

رفض مقولة العلاقة بين الأمن والسلام أو "الأرض مقابل السلام" وتمسك بمقوله أخرى مخالفة وهي أن الأرض ليست موضوع التفاوض وإنما "الأمن مقابل الأمن" ، علما أن الأمن الاسرائيلي له مفهوم خاص يتصادم قطعا مع متطلبات الأمن الفلسطيني والأمن في أي دولة عربية أخرى.

هكذا بدأت المرحلة الثالثة بعد أوسلو من ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠حتى كتابة هذه السطور(٢٠٠٢/٥/١١). خلال هذه المرحلة الأخيرة تصدى الجيش الاسرائيلي لانتفاضة أطفال الحجارة ، واستخدم أسلحة حية وعمد إلى مطاردتهم وإذلالهم واعتقالهم وسجنهم وتكسيرعظامهم وإنزال أقسى أنواع المعاملة بهم ، وكان يتعين لو حسنت النوايا – أن تفهم اسرائيل أن الانتفاضة هي تعبير عن إصرار شعب فلسطين على الاستقلال وهي تعبير عن رفضه للمماطلة، كما أنها رد يقطع الطريق على محاولة إسرائيل أن تعيد الأمور الى ما قبل أوسلو بل إن الانتفاضة في أحد معانيها تعبير عن رفض الحلول الوقتية التي تعلن عن عدم جدية تحقيق الغاية وهي الاستقلال .

ثم انتقلت الانتفاضة الى مرحلة أخرى استخدمت فيها بعض الأسلحة البسيطة من الجانب الفلسطيني ردا على أعمال القتل اليومي من جانب الجيش الاسرائيلي وقطعان المستعمرين في المستعمرات اليهودية في الأراضي الفلسطينية. ومعنى ذلك أن إسرائيل كان لابد أن تفهم أنه رغم أن الشعب الفلسطيني أعزل ولا مجال للمقارنة بينه وبين اسرائيل التي تمتلك واحدا من أقوى الجيوش العالمية ، كان ذلك كافيا لكي تفهم أن القوة لن ترد الشعب الفلسطيني عن المضي في المطالبة بحقه. فعمدت إسرائيل إلى تصعيد أعمال القوة والبطش ضد الفلسطينيين العزل، وفي هذه الأثناء لم تجد الانتفاضة بد ا من محاولة إدخال سلاح جديد يعادل من الناحية النفسية القوة الاسرائيلية، وكان هذا السلاح المستحدث هو العمليات الاستشهادية التي أصبحت فيما بعد مثارا لجدل غير مسبوق في الشرق الأوسط وعلى مستوى العالم، واذا كانت هذه العمليات هي أسمى درجات الفداء للوطن والدفاع عن الحق ضد عدو غاشم، وهي أعلى درجات المعاناة الانسانية حيث يقوم بها شباب في مقتبل أعمارهم أغلقت إسرائيل أمامهم أبواب الأمل في أي مستقبل وجعلت حياتهم سلسلة من البطش والغطرسة الإسرائيلية المستندة

الى القوة الغاشمة ، فإن إسرائيل قَد حولت مفهوم هَذِهِ العمليات عِنْدَمَا وقعت أحداث نيويورك بَعْدَ مُضيّ عام تقريبًا عَلَى بدء الانتفاضة ،حيث تمكنت مِنْ أنْ تُؤَكِّد فِي المدرك الأمريكي أنْ الذين قاموا باستخدام الطائرات المدنية فِي أحداث نيويورك مسلمون وهُو نفس مَا يقوم بِهِ الفلسطينيون ضِدَّ الاسرائيليين المدنيين العزل ، وأنْ هذا العمل هُو جزء مِنْ الثقافة الاسلامية الَّتِي تدفع المسلمين الى الفتك بالآخرين لأن المسلمين مهتمون بالتخريب ولَيْسَ بالبناء.

والمذهل أنْ قطاعًا كبيرًا مِنْ المثقفين العرب قَد قرر بثقة كاملة أنْ مساندة العالم العربي للحملة الأمريكية فِي أفغانستان سَوْفَ تَكُون درسًا بليغًا لإسرائيل وهِيَ فرصة سانحة لمجاملة الولايات المتحدة وإنشاء تحالف عربي أمريكي عَلَى حساب إسرائيل. بَلْ حلَّق بهم الخيال بعيدًا عِنْدَمَا قدروا أنْ انشغال الولايات المتحدة فِي أفغانستان سَوْفَ يخلق الذعر الاسرائيلي وقَد تضطر إلى تقديم تسوية وإبداء مرونة بِهَذِهِ المناسبة. ولَكِنَّ الواقع لَمْ يتفق مَعَ هَذِهِ التقديرات الرومانسية، فَقَد نجحت اسرائيل فِي استغلال هَذَا الانشغال فِي التشديد عَلَى الانتفاضة مِمَّا أدَّى الى تكثيف العمليات الاستشهادية. عِنْدَ هَذَا الحد كَانَت اسرائيل تدرك أنَّهَا تنفرد بالفلسطينيين ولَكِنَّ الانتفاضة كَانَت تقدر أنْ العالم العربي سَوْفَ يهب للتضامن مَعَهَا وأنْ لِهَذَا العالم ثقلاً معينًا يُمْكِن استخدامه لتوفير الدَّعْم للمقاومة.

وهَكَذَا تناقضت حسابات الانتفاضة مَعَ الحسابات الاسرائيلية .وبَعْدَ أنْ انجلى الموقف فِي أفغانستان بَدَأَتْ الولايات المتحدة تتخذ موقفًا أكثر ابتعادًا عَنْ المشكلة، ولَكِنَّ هَذَا الموقف هُو مَا طلبته اسرائيل خدمةً لأهدافها، ثُمَّ بدأ الموقف الأمريكي يتجه بالتدريج نحو مساندة السياسة الاسرائيلية الَّتِي تتضمن اغتيال قيادات الانتفاضة واتِّخَاذ إجراءات خانقة ضِدَّ الشعب الفلسطيني، وبَدَأَتْ واشنطن تحمل القيادة الفلسطينية مسئولية التدهور كُلَّمَا اتَّسَعَت الأعمال الاستشهادية وكُلَّمَا شعرت مَعَهَا اسرائيل بأَنْ هَذِهِ الأعمال هِيَ الَّتِي ستقوض بنيانها وتفكك المشروع الصهيوني تفكيكًا محققًا. وعِنْدَ هَذَا الحد أيضًا بدأ التنسيق الاسرائيلي الأمريكي وتقدمت واشنطن لحماية اسرائيل فِي المحافل الدَّوْلية ومنحها الفرصة الكاملة للإجهاز عَلَى الفلسطينيين، بَلْ إنْ واشنطن قَد قامت بعدد كبير مِنْ المناورات الَّتِي جعلتها محل شَكٍّ فِي

العالم كله جعلت مصداقيتها محل تساؤل جدي. والدليل الواضح عَلَى ذَلِك أَنَّهُ فِي الوقت الَّذِي شجعت فِيهِ واشنطن العالم العربي عَلَى تقديم المبادرة السعودية وعَلَى قبولها، فإن ذَلِك كَانَ يهدف فِي الحقيقة إلى تحذير العالم العربي إزاء برنامج إسرائيلي متكامل ينتهي بالتخلص مِنْ المقاومة عَنْ طريق العمل العسكري المباشر وإعادة احتلال الأراضي والقضاء عَلَى الشعب الفلسطيني وعَلَى بنيته الأساسية وعَلَى المقومات المادية والسياسية لسلطته الوطنية. وقَد بدأ ذَلِك بَعْدَ ساعات مِنْ إقرار القمة العربية فِي بيروت للمبادرة العربية، حَيْثُ قامت إسرائيل بتنفيذ هَذَا البرنامج اعتبارًا مِنْ ٢٩ مارس ولا تزال مرحلتة الأولى حسبما صرح شارون مستمرة حَتَّى كتابة هَذِهِ السطور ، ورغم التأكيدات الأمريكية والإسرائيلية بانسحاب اسرائيل مِنْ الضفة الغربية خلال مواجهة اسرائيل للانتفاضة الفلسطينية، أثارت اسرائيل عددًا مِنْ القضايا حَتَّى تربك الساحة الفلسطينية ، **ويُمْكِن أَنْ نشير الى أهمها وهيَ :**

- القضية الأولى : تحديد إقامة ياسر عرفات فِي حجرتين بمقره فَي رام الله وممارسة أقصى صور الإرهاب والإذلال لَهُ ومطالبته وهُو سجين بمحاربة مَا أسمته الإرهاب الفلسطيني .
- **القضية الثانية** : أَنْ اسرائيل تمكنت من إقناع الولايات المتحدة بِأَنْ أعمال الإبادة الَّتِي تقوم بهَا فِي فلسطين هِيَ جزء مِنْ الحملة الأمريكية ضِدَّ الارهاب. وبالإضافة الى التصريحات الرئاسية المؤكدة لِهَذَا الموقف فَقَد أصدر الكونجرس يوم ٢٠٠٢/٥/٢ قرارين واضحين يدينان الفلسطينيين ويؤيدان الأعمال الاسرائيلية ضِدَّ الأنشطة" الإرهابية " الفلسطينية .
- **أما القضية الثالثة** : فَهِيَ القبول بمحاكمة فلسطينية لقتلة وزير السياحة الإسرائيلي مقابل سجنهم فِي أريحا تحت حراسة أمريكية وبريطانية .

ولاشك أَنْ عرض الأحداث مُنْذُ قيام الانتفاضة في سبتمبر ٢٠٠٠ قَد كشف عن الالتحام الكامل بَيْنَ اسرائيل والولايات المتحدة كَمَا كشف أَنْ الأمم المتحدة لا تستطيع أَنْ تقوم بِأَيّ دور إذا كَانَ لا يتفق مَعَ المخطط الإسرائيلي، وهُو مَا ظهر جليًا فِي تَحَدِّي اسرائيل للجنة تقصي الحقائق الَّتِي قرر مجلس الأمن إرسالها إلَى جنين وشكلها الأمين العام وتمكنت إسرائيل مِنْ تَحَدِّي مجلس الأمن الَّذِي اكتفى بالإعراب عَنْ أسفه للموقف الإسرائيلي .

فَمَا هِيَ أبعاد المستقبل بالنسبة للقضية الفلسطينية والعلاقات العربية الإسرائيلية وكَذَلِكَ العلاقات العربية الأمريكية ؟

مِنْ الواضح أنْ الهاجس الرئيسي عِنْدَ اسرائيل هُو المقاومة الفلسطينية لأنَّهَا كَانَت تطمح إلى أنْ يسير برنامجها فِي الأراضي الفلسطينية بسهولة ويسر دُونَ مقاومة. كَذَلِكَ فإن إسرائيل قَد تصورت أنْ المقاومة الفلسطينية فِي مرحلة الستينات وحَتَّى ١٩٨٢ كَانَ يقودها عدد مِنْ القيادات السياسية الَّتِي تزعمت جماعات عسكرية هدفها الضغط علي إسرائيل حَتَّى يَكُون لَهَا دور عَلَى السَاحة السياسية ولا يهمها شكل التسوية. ولَمْ تتنبه إسرائيل الى أن احتلال الأراضي الفلسطينية لَمْ يؤثر فِي الثقافة الفلسطينية الَّتِي تكرس قيمة أساسية وهِيَ أن الأرض لَهُم وأن الاحتلال لَهُ نهاية. ولِذَلِكَ لَمْ تفطن إسرائيل إلى المقارنة الحقيقية بَيْنَ المقاومة الْمُسَلَّحَة لَهَا مِنْ داخل الدُّوَل المحيطة باسرائيل وبَيْنَ المقاومة الفلسطينية لَهَا مِنْ داخل الأراضي المحتلة فكلاهما فصلان مِنْ فصول الجهاد الفلسطيني ووجهان لحقيقة واحدة وهِيَ إصرار الشعب الفلسطيني عَلَى أنْ يسترد حقه فِي أرضه .أما الهاجس الثاني عِنْدَ اسرائيل، فَهُو تحييد الدُّوَل العربية الَّتِي يمكن أنْ تساند المقاومة الفلسطينية .وأما الهاجس الثالث، فَهُو استمرار التحالف الأمريكي الاسرائيلي. وأخيرًا" فان الهاجس الرابع هُو انكشاف أعمال الإبادة الاسرائيلية وشيوع القلق مِنْ تآكل العامل المعنوي المزعوم الَّذِي تقوم عَلَيْهِ الدَوْلة اليهودية فضلاً عَنْ تحول الرأي العام العالمي لصالح الضحايا الفلسطينيين .

ومِنْ أهم حقائق المستقبل من زاوية الفكر الإسرائيلي هَذَا المشهد الرائع للعمليات الاستشهادية الَّذِي سيدفع إسرائيل إلى عزل أراضيها تَمَامًا عن الأراضي الفلسطينية حَتَّى لا تعرض نَفْسَهَا لِهَذَا الخطر الَّذِي يؤذن بنهايتها، ولِكَي تحافظ إسرائيل عَلَى عقيدتها العسكرية التقليدية وهِيَ أنْ تظل الحروب والمواجهات خارج الأراضي الإسرائيلية، وهِيَ القاعدة الَّتِي كسرتها العمليات الاستشهادية ونفذت بتصميم أذهل اسرائيل.

وترتيبًا عَلَى مَا تقدم فإن إسرائيل سَوْفَ تعمل عَلَى القضاء عَلَى كُلّ عناصر المقاومة فِي فلسطين ثُمَّ يَكُون أول بند عَلَى جدول أعمال المفاوضات المقبلة هُو التضامن بَيْنَ السلطة الوطنية

وإسرائيل للقضاء عَلَى مَا تزعمه السلطة مِنْ بقايا المقاومة. بَلْ إنْ مؤتمر السلام الَّذِي تقترحه الولايات المتحدة سَوْفَ يُؤَدِّي إلى إبرام اتفاقية سلام شاملة أهم أحكامها أنْ تتعاون الدُّوَل العربية مَعَ إسرائيل فِي تفكيك المنظمات الفدائية الفلسطينية وحزب الله ووضع العالم العربي فِي مقارنة مكشوفة بَيْنَ أنْ يختار " السلام الموهوم " مَعَ اسرائيل أو أنْ يختار الانحياز للمقاومة، حَيْثُ لا مقاومة مَعَ السلام، فَإمَّا السلام وإما المقاومة. ولا شَكَّ أنْ هَذَا جزء مِنْ المسلسل المتكرر وكأنها أسطورة سيزيف اليوناني الَّذِي كُتب عَلَيْهِ أنْ يحمل الحجر حَتَّى أعلى الجبل ثُمَّ لا يبلغه ويسقط عِنْدَ السفح ولَكِنَّهُ لا يمل المحاولة .

ومِنْ ناحيه أُخْرَى، فإن إسرائيل لَنْ تقدم شيئًا ذا بال للفلسطينيين فِي هَذَا المؤتمر. وقَد تتظاهر بعدم تملصها مِنْ اتِّفَاق أوسلو ولَكِنَّهَا فِي ضوء المساندة الأمريكية الكاسحة لَهَا والظلم الأمريكي الفاحش ضِدَّ الفلسطينيين سَوْفَ تحاول أن تعلن موافقتها عَلَى دَوْلَة فلسطينية ممسوخة وعَلَى خطة لتسوية قضية القدس .فإذا تمكنت اسرائيل مِنْ تطبيع علاقاتها مَعَ العالم العربي مقابل مَا سَوْفَ تصر عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ تنازل ومرونة لصالح الفلسطينيين، فإنها بذَلِك تَكُون قَد أدخلت العالم العربي والقضية الفلسطينية فِي نفق جديد يشبه نتائج حرب ١٩٦٧. والسؤال الَّذِي يلح عَلَى الخاطر هُو مَا هُو البديل أمام العالم العربي وأمام الفلسطينيين ؟

هُنَاكَ نظريتان :

الأولى : تتسم بالواقعية وترى أنْ الظروف الحالية لَنْ تمكن الفلسطينيين فِي ضوء الدمار الَّذِي تعرضوا لَهُ والميل الأمريكي الكامل ضدهم مِنْ الحصول إلا عَلَى مَا تجود بِهِ إسرائيل وأنْ الخيار عندهم إما شئ وإما لا شئ ! ولَكِنَّ المشكلة فِي هَذِهِ النظرة هِيَ أنْ العالم العربي سَوْفَ يدفع ثمن هَذِهِ التسوية غاليًا وقَد يُؤَدِّي ذَلِك الى صدام محقق بَيْنَ الشعوب العربية وحكوماتها لأن هَذِهِ الشعوب لا تصدق أنْ هَذِهِ التسوية تتناسب مَعَ قدرات العالم العربي. كَذَلِكَ تُؤَدِّي مِثْل هذه التسوية إلى إضعاف كامل لقدرة الفلسطينيين عَلَى المقاومة فِي المستقبل مادامت إسرائيل ترى، فِي مِثْل هَذَا المخطط، أنْ المقاومة بَعْدَ انسحاب جيشها مِنْ الأراضي الفلسطينية لَنْ تَكُون إلا عدوانًا عَلَيْهَا، وهَذَا بالضبط هُو الَّذِي قصده الرئيس بوش فِي تصريحه يوم ٢٠٠٢/٥/٣ بِأَنَّهُ

يؤيد قيام دولة فلسطينية بريئة من الارهاب ولا تهدد إسرائيل ومثل هذه الدولة وضعت إسرائيل والولايات المتحدة تصورا خاصا لها.

أما النظرية الثانية : فترى أن أي تسوية في حالة الخلل الكامل بين الإسرائيليين والفلسطينيين بل والعرب عموما سوف تصور هذا الخلل، وأن الخيار لا يجب أن يكون بين التسوية أوعدمها. وإنما يجب أن يكون هناك جدول أعمال عربي آخر يركز على **الحقائق الآتية**:

أولا : التمسك بثوابت عملية السلام رغم تواضعها والتي تبدأ بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ وعملية مدريد وأوسلو في مراجعة متماسكة لهذه المرجعيات .

ثانيا : مراجعة التصرفات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة وتحديد المسؤلية عن أعمال الإبادة والتخريب والقتل وتقديم المسؤلين عنها إلى المحاكمة حتى يستقر ضمير العالم ويبرأ ذمته من ضحايا أعمال الإبادة الإسرائيلية ، وأن تلزم إسرائيل بإعادة إبرام ما حطمته .

ثالثا : لا يكون التفاوض حول انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية كما اقترح الرئيس بوش، وإنما يجب أن ينصب التفاوض على اللمسات الأخيرة على الحقوق الفلسطينية والوضع النهائي وشكل العلاقات بين إسرائيل وفلسطين. أما علاقة اسرائيل بالعالم العربي فيجب أن تترك لإرادة العالم العربي وقرار الشعوب العربية ، وأن يستخلص العالم العربي مما حدث الدروس المستفادة ، وأن تتمسك الحكومات العربية بحقوق الأجيال المقبلة في حياة حرة كريمة لا يجهضها الخطر الصهيوني الذي استشرى في العالم كله .

٤ـ الإعلام الصهيوني والدبلوماسية الأمريكية

إزاء الاجتياح الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية

علاقة الإعلام بالسياسة الخارجية في العالم الثالث تختلف عنها في الولايات المتحدة اختلافا يضيق هذا المقام عن تفصيلها ولكنها ترتكز أساسا على حقيقة رئيسية، وهي أن العالم الثالث يستخدم الإعلام في صناعة القرار السياسي والترويج له والإقناع به دون أن يهتم بالنقد الذي يتضمنه الإعلام خاصة شريحته الحرة كي تعدل الحكومة من سياساتها ،أما في الولايات المتحدة فالساحة الإعلامية حافلة بكل صور الرأي وهي صناعة تتقنها مؤسسات هدفها السيطرة على الرأي العام وتشكيلة وتجنيد صناع الرأي العام بهدف التأثير في نهاية المطاف على القرار السياسي .

ولا شك أن قوة الإعلام في الولايات المتحدة تجعل صانع القرار غير قادر على تحدي اتجاهاتها، كما أن تسريب الحكومة للأخبار بقصد خلق صورة معينة لبعض الدول لتبرير موقف الحكومة منها كان أمرا مألوفا، ومعنى ذلك أن العلاقة بين الحكومة وبين الإعلام ليست مجرد علاقة تأثر وتأثير متبادل بطريقة بريئة وإنما تشهد أحيانا اختناقات وأزمات في بعض المواقف الحساسة والقضايا الشائكة، ولا بد أن ظهور اتجاهات معينة في وسائل الإعلام يسبب حساسية لصانع القرار بصرف النظر عن دور الإعلام في التأثير على الناخبين وعلى أداء الحكومة أوفضائح صناع القرار.

ولا شك أن موقف الإعلام الأمريكي عندما يتعلق الأمر بإسرائيل له أهمية خاصة تزداد خصوصية بعد أحداث ١١ سبتمبر ونجاح إسرائيل عن الطريقين الدبلوماسي والإعلامي في تحقيق التماثل الكامل بين استهداف الولايات المتحدة وإسرائيل معا من جانب قوى الإرهاب التي تختلف مواقعها ولكن تتفق غاياتها .

في هذه الورقة الموجزة نحاول أن نحدد مدى تأثر الدبلوماسية الأمريكية بالإعلام الأمريكي خاصة الشق الذي يسيطر عليه الإعلام الصهيوني على الأقل خلال الفترة من ٢٩ مارس حتى

(٢٠٠٢/٥/١١) أي حوالي شهر ونصف. أهمية هذه الفترة تكمن في أن إسرائيل تمكنت من الناحية العملية من أن تقوم بعملية عسكرية واسعة هي الأضخم وفق التقديرات الإسرائيلية منذ أكثر من عشرين عاما قامت خلالها بارتكاب كل أنواع الجرائم، والأهم أنها قضت من الناحية العملية على المقومات الأساسية للانتفاضة وارتكبت من المجازر ما لم يماثلها في التاريخ المعاصر.

ومن أسباب الاهتمام بهذه المرحلة أيضا أن إسرائيل تمكنت من ضمان المساندة الأمريكية الكاملة لموقفها على المستوى السياسي العام وعلى المستوى الدبلوماسي الثنائي والمتعدد الأطراف وفي إطار الأمم المتحدة ، بل إن واشنطن قامت بأدوار مكملة للدور الإسرائيلي ومعاونة لهذا الدور على المستوى الدبلوماسي العالمي مما مكن إسرائيل على الأرض من المضي بثبات في تحقيق مخطط الإبادة الإسرائيلي. ولعله من المفيد في الدراسات العربية أن نحدد أسباب هذه النقلة التاريخية في الموقف الأمريكي صوب الموقف الإسرائيلي، ونقتصر في هذه الورقة على بيان أثر الإعلام الصهيوني على تحقيق هذه النقلة حتى يتضح لنا خطورة الإعلام عندما تتوافر له شروط ومواصفات معينة، ونعالج هذه النقطة **من زاويتين** :

- الزاوية الأولى : ما هي مقولات الإعلام الصهيوني وما هو سر السحر الذي تتمتع به والقبول السهل الذي تحظى به حتى على بعض العقليات العربية .
- الزاوية الثانية : مدى تأثر صانع القرار الأمريكي بالرسالة الإعلامية الصهيونية واستمرار هذه الرسالة في مساندة الموقف الأمريكي الجديد.

أولا : مقولات الإعلام الصهيوني :

لوحظ أن هناك تطابقا كاملا ربما في لحظة نادرة من الظهور العالمي للموقف الصهيوني بين الفكر السياسي الإسرائيلي وسياسة الحكومة الإسرائيلية ومواقف الإعلام الصهيوني، ويقصد بالإعلام الصهيوني في هذا المقام جميع وسائل النشر خاصة في الولايات المتحدة وفي إسرائيل والتي تحمل الرسالة الصهيونية أو تعبر عن المنطق الصهيوني سواء كان كاتبها عضوا في الجماعة الصهيونية أومقتنعا بمنطقها وعاملا على دعم هذا المنطق .

ومن الصعب في هذه الورقة الموجزة أن نقدم دراسة وثائقية كامله لهذه المواقف ولذلك نكتفي بالإشارة إلى بعض هذه المقولات وتطورها :

المقولة الأولى : إن إسرائيل هي تكريس للحلم القومي اليهودي وأنها جزء من الحضارة الغربية وتجسيد للثقافة المشتركة المسيحية اليهودية في العهدين القديم والجديد؛ ولذلك يجب على الغرب أن يحافظ عليها في مواجهة الشرق البربري بعد أن عجزت إسرائيل حتى الآن عن أن تعلمه كيف يتحضر وكيف يسالم. ولخصت هذه المقولة كافة الجوانب السياسية والثقافية بين إسرائيل والغرب في نظرية الأمن الإسرائيلي التي توسعت فيها إسرائيل منذ نشأتها، وقبل الغرب في عمومه هذا التوسع حتى في هذا الوقت الذي يفترض أنه يختلف عن الأربعينيات وما تلاها من عقود .

المقولة الثانية : إن إسرائيل هي وطن اليهود وهي الفرصة التاريخية التي يجب الحفاظ عليها لأنها تمثل قطعة من الحضارة المعاصرة، بينما الفلسطينيون والعرب ينتمون إلى ثقافة هدامة تحكمها عوامل الحقد على الآخر والغيرة مما يحققه من تقدم والرغبة في الهدم والانتحار ومعاداة الحياة. ولذلك هذه المقولة تقدم نموذجين متناقضين هما: النموذج الإسرائيلي والنموذج الفلسطيني .وقد استطردت هذه المقولة وامتدت إلى مجمل الثقافة العربية والإسلامية ورسمت صورة بالغة السلبية للمسلمين والعرب والفلسطينيين .

المقولة الثالثة : إن لإسرائيل الحق في استمرار الاحتلال ما دام مفيدا لأمنها ويستغرب أن يقاوم الفلسطينيون هذا الاحتلال. وبسبب حماقة هذه المقولة فقد استفزت ضابطا في القوات المسلحة الإسرائيلية من الذين رفضوا الخدمة العسكرية في الأراضي الفلسطينية فكتب نموذجا للمنطق الذي يمثله في مقاله في الهيرالد تريبيون في ٣٠ إبريل ٢٠٠٢ ص ٨ بعنوان " لماذا نرفض الحرب من أجل استمرار الاحتلال ؟ " ويشير الضابط في مقالته إلى أن الاحتلال يتعارض مع مصالح إسرائيل بل يهدد وجودها ذاته وأن معارضة هذا الفريق للاحتلال نابعة من حبه لوطنه المستعد للموت دونه ويأمل من هذه الجماعة البالغة الإخلاص لإسرائيل أن تؤدي إلى إنهاء هذا الاحتلال الذي يرى أنه مدمر لكل من الإسرائيليين والفلسطينيين ولمستقبل البلدين .

المقولة الرابعة : أن كلا من إسرائيل والولايات المتحدة ضحايا الإرهاب الإسلامي ولذلك هما في خندق واحد ضد هذا الإرهاب، وعندما تساند واشنطن إسرائيل للقضاء على الفلسطينيين فهي لا تقدم خدمة ولا تصنع معروفا لها وإنما يجب أن تكون ممتنة بأن إسرائيل تحارب في فلسطين والعالم العربي المعركة الأمريكية. وإذا كانت إسرائيل قد ساندت الولايات المتحدة في أفغانستان بطريق غير مباشر فيجب على أمريكا أن تساند إسرائيل في حربها ضد الإرهاب الفلسطيني بشكل مباشر .

وقد أدت هذه المقولة البسيطة إلى تحول كامل في الموقف الأمريكي خاصة عندما بدأ الإعلام الصهيوني يعدد أوجه الشبه بين المعركة في فلسطين والمعركة في أفغانستان، عندما شبه عرفات بأنه ابن لادن وشبه الجماعات الفلسطينية المقاومة بقصد عموم الشعب الفلسطيني أنه كله ينخرط في هذه الجماعات على أنه طالبان فلسطين، وما دام أمن إسرائيل بالمفهوم الإسرائيلي جزء من الأمن الأمريكي وأنه يعتبر أحد أهم مصالح الحيوية الأمريكية في المنطقة فإن المساندة الأمريكية هي خدمة أيضا للأمن القومي الأمريكي .

المقولة الخامسة : انطلق الإعلام الصهيوني من نفس المنطلق في المقولة السابقة لكي يمد بصره إلى مختلف التحالفات خارج فلسطين، فشمل كافة القضايا الإسلامية وصور أطرافها على أن الطرف الإسلامي هو الإرهاب بصرف النظر عن خصوصيات هذه القضايا كما صور الطرف الآخر على أنه حليف إسرائيل، والنموذج الواضح أمامنا هو النموذج الروسي في الشيشان والنموذج الهندي في كشمير، ونحن نعتقد أن المسافة الفاصلة غير الجوهرية بين الموقفين الروسي والإسرائيلي في فلسطين قد حاول الإعلام الصهيوني أن يتجاوزها وركز على التشابه بين الموقفين الإسرائيلي والروسي مقابل الموقفين الفلسطيني والشيشاني.

وقد صور هذا الموقف أحد الأعلام الصهاينة Jackson Diehl في مقاله بالهيرالد تريبيون في ٣٠ إبريل ٢٠٠٢ ص ٨ حيث يتصف الإعلام الصهيوني بتكثيف الفكرة والإلحاح عليها وتكاثر أقلام المدافعين عنها بحيث تدخل إلى ذهن المتلقي بشكل يسير. هذه المقولة التي تعبر عنها مقالة جاكسون بعنوان: " لماذا يستطيع بوتين أن يجتاح الشيشان بينما لا يستطيع شارون ذلك

في فلسطين ؟ " وكان بذلك يريد أن يفحم الروس الذين كانوا ينتقدون الاجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية. ويقول: " لماذا استطاع بوتين أن يرتكب في الشيشان نفس الجريمة التي فعلها شارون في فلسطين دون أن يتعرض لنفس الضغوط التي تتعرض لها إسرائيل ؟ " ثم يشير إلى أنه منذ أحداث ١١ سبتمبر حاول الرجلان بوتين وشارون أن يقنعا العالم بأن الحركات الوطنية الإسلامية الساعية إلى إنهاء الإحتلال العسكري الروسي للشيشان والإسرائيلي للأراضي الفلسطينية لا يمكن فصلها أوتمييزها عن الإرهابيين بقيادة أسامة بن لادن، ولذلك فيجب أن تكون معاملة الحالتين واحدة ويستغرب الضجة حول أحداث جنين بينما حملة الرئيس الروسي بوتين ضد الشيشان وفظائعها هناك لا يلحظها أحد حيث يتم القيام بعمليات التطهير العرقي لسكان القرى ولم يكترث العالم أوالروس ، بينما هبط على إسرائيل في أسبوع واحد أكثر من ألفي صحفي أجنبي يغطون جرائمها في الوقت الذي لا يوجد إلا صحفي واحد أو اثنان في الشيشان. وفي الوقت الذي قررت فيه لجنة حقوق الإنسان القيام بتحقيق بسيط في الشيشان بادر الرئيس الروسي بوتين بسحب اقتراحه الرمزي بإجراء مفاوضات مع ثوار الشيشان دون أن يهتم أحد.

وعدد الكاتب أكاذيب بوتين في الشيشان مقابل كفاح الحكومة الإسرائيلية لتأكيد براءتها في فلسطين، ويقارن الكاتب في هذه المقالة بين الاجتياح الإسرائيلي لجنين مرة واحدة منذ ٨ سنوات مقابل ٣٣ عملية عسكرية كبرى في قرية شيشانية واحده منذ سبتمبر ١٩٩٩ و٢٠ عملية في قرية أخرى ودمار أوسع من جنين في القريتين راح ضحيته حوالي ١٢ ألف شيشاني بالإضافة إلى مئات الآلاف من الضحايا بصور مختلفة .

ومع ذلك فإن الرئيس الروسي بوتين بالمقارنة بشارون لن يتمكن من كسب المعركة في الشيشان بسبب تطور المقاومة الشيشانية ، علما أن معارك الشيشان تكلف روسيا يوميا واحدا أواثنين من جنودها ويحتمل أن تظل لسنوات ما لم تسلم روسيا أو تنسحب من طرف واحد، ومن الظلم أن العالم يغل يد شارون بينما يعطي بوتين حرية العمل رغم أن ذلك لا يصنع معروفا لروسيا.

القولة السادسة : إنْ السعودية وكر الإرهاب وأنْ ١٥ مِنْ الـ ١٩ الذين نفذوا الهجوم عَلَى نيويورك سعوديون ولَمَا كَانَت السعودية حليفًا هامًا للولايات المتحدة فَمِن الواجب أنْ تصارحها واشنطن بأخطائها وأنْ تساعدها عَلَى أنْ تنضم إلى معسكر الشرفاء الَّذِينَ يحاربون الإرهاب. وقَد قدر عدد المقالات الَّتِي تُؤَكِّد هَذَا المعنى بالآلاف مُنْذُ الانتفاضة الفلسطينية فقط ، رغم أنْ رسالة توماس فريدمان الشهيرة إلَى وزير الشئون الدينية السعودي كَانَت إعلانًا عَنْ تكريس هَذَا الخط فِي الإعلام الصهيوني ،وطالب الإعلام الصهيوني السعودية بتنظيف البرامج والمؤسسات والإعلام ودور التربية مِمَّا يشجع عَلَى الإرهاب أوالتحريض أوالكراهية ، ثُمَّ ساند الإعلام الصهيوني بَعْدَ ذلك الحملة الَّتِي شنها شارون عَلَى السعودية بسبب تبني الحكومة الموقف المساند لجمع التبرعات لأسر وضحايا أعمال الإبادة الإسرائيلية ، وقَد بدأ هَذَا الخط مُنْذُ أنْ رفض الأمير عبد الله خلال زيارته فِي إبريل الماضي للولايات المتحدة أنْ يدين العمليات الاستشهادية ، وإلاَّ لِمَاذَا يركز الإعلام الصهيوني عَلَى السعودية وحدها والعالم كله قَد هب لجمع التبرعات وتقديم المساعدات إلَى الشعب الفلسطيني وهَذَا هُو لب الإعلام الصهيوني الَّذِي تلخصه المقولة التَّالِيَة .

القولة السابعة : بدأ الإعلام الصهيوني ثُمَّ تبعه الموقف الرسمي الأمريكي فِي الإمساك بالسبب الرئيسي الَّذِي وحد إسرائيل والولايات المتحدة وأثار إرهابًا واضحًا لَدَى الآخرين حَتَّى داخل العالم العربي بِحَيْثُ أَصْبَحَ هَذَا السبب هُو قضية القضايا ونعني بِهِ العمليات الاستشهادية. ولا نخفي أنْ الإعلام الصهيوني تمكن مِنْ تقديم مقولة غاية فِي البساطة لكسب الأرضية أوَّلاً ثُمَّ استقطاب المؤيدين عِنْدَمَا أكَّدَ فِي البداية أنْ احترام المدني وحقه فِي الحياة فِي أي مكان مبدأ مقدس، ثُمَّ انتهى مِنْ هَذِهِ المقدمة إلَى حرمة حياة المدني الإسرائيلي ـ دُونَ أنْ يُشِير إلَى المدني الفلسطيني ـ لأن كُلّ المدنيين الفلسطينيين فِي ظنه ينتمون إلَى عرق إرهابي يجب اجتثاثه.

وقَد أغرت هَذِهِ المقولة الكثيرين فِي مصر والعالم العربي لرفض الاعتداء عَلَى المدني الإسرائيلي داخل إسرائيل مِمَّا أدَّى إلَى ظهور اتجاه فِي الإعلام والفكر يطابق الموقف الرسمي فِي العالم العربي مؤداه أنَّهُ رغم تقدير دوافع الاستشهاد إلاَّ أنَّهُ اعتداء عَلَى حياة المدنيين

الإسرائيليين، بَلْ أعلن الدكتور شريف بسيوني رئيس المعهد الدَوْلي للقانون الجنائي أنْ هَذِهِ العمليات تشكل جريمة حرب .والسر فِي الاهتمام الفائق الَّذِي أبداه الإعلام الصهيوني بالعمليات الاستشهادية ـ وهُو مَا سبق أنْ فصلناه فِي دراسات سابقة ـ هُو أنْ الإقدام عَلَى الشهادة تظهر أعلى درجات الفداء مِنْ جانب الشباب الفلسطيني، الَّذِي لَمْ تزده سنوات الاحتلال وشهور القهر والإبادة إلاَّ حرصًا عَلَى المقاومة ضِدَّ عدو تسلح بكُلِّ الأسلحة الحديثة وانفلت مِنْ كُلّ قيد قانوني أو أخلاقي أوسياسي، حَيْثُ شعرت إسرائيل بِأَنْ قوتها لا تؤمن لمواطنيها أبسط مفاهيم الأمن، وأنْ الاستشهاد يُؤَدِّي إلَى مواجهة مخيفة بَيْنَ صاحب الحق ومغتصب هَذَا الحق لَمْ تعهدها إسرائيل الَّتِي تستخدم جيشها لقمع العالم العربي مِنْ خلال تقليم أظافر جيوشه.

كَمَا يعني الاستشهاد أنْ إسرائيل لا تخيف بقوتها أحدًا فِي فلسطين يضاف إلَى ذَلِك أنْ المقدم عَلَى الشهادة إنسان وثق بعهد الله ووعده لَهُ بالجنة فاستشرف حياة خالدة وآمن بأن حياته هِيَ حجر الحرية للشعب الفلسطيني. ومِنْ شأن هَذِهِ العمليات أنْ تقوض الركن الركين فِي المشروع الصهيوني وهُو الهجرة، فتبث الخوف فِي النفوس فتقف الهجرة إلَى إسرائيل ويفر سكانها إلَى مواطنهم الأصلية فتتفكك إسرائيل، بَيْنَمَا المواجهة عَنْ طريق الجيوش تُؤَدِّي إلَى العكس تَمَامًا أي التفاف يهود العالم حول الشعب الإسرائيلي ومساندة دُوَله لإسرائيل. وهَذَا هُو السبب الوحيد فِي هَذِهِ الحملة السياسية والإعلامية والدبلوماسية الشرسة عَلَى هَذِهِ العمليات الَّتِي وصفها نتنياهو فِي إحدى مقالاته بِأَنَّهَا سرطان يهدد الحضارة الإنسانية. وقَد تفرع عَنْ هَذِهِ المقولة الأخيرة الكثير مِنْ التفاصيل والتشريعات للإسقاط عَلَى الطابع العربي والإسلامي والفلسطيني، بلغ ذَلِك أعلى تجلياته فِي مقالة نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل الأسبق وعنوانها "القوة وحدها هِيَ الضمان لأمن إسرائيل "، ورغم أَنَّهُ يُعْبَرُ بذَلِك عَنْ نظرية ثابتة فِي الإدراك الإسرائيلي إلاَّ أَنَّهُ انطلق مِنْهَا إلَى القول بِأَنْ الفلسطيني بطبيعته لا يَكُن للإسرائيلي سِوَى الحقد والأمل فِي الدمار وأنْ الفلسطيني دُونَ سائر العرب هُو العدو الوحيد عَلَى حياة إسرائيل، ولِذَلِكَ يجب أنْ يُجتث مِنْ الحياة. وهَذَا أسوأ تفسير للإبادة الْعِرْقِيَّة الَّتِي يقوم بِهَا الجيش

الإسرائيلي، وهذا هو التفسير الصحيح الذي لم يتمكن نتنياهو من تجميله أوالالتفاف حوله، هي إبادة لشعب كامل وعرق بعينه .

المقولة الثامنة : إن الدولة الفلسطينية، خلافا للموقف الإسرائيلي السابق، يجب إقامتها لكن هذه الدولة يجب أن تكون إضافة للسلام أي للمصالح الإسرائيلية ولذلك يجب أن تصمم تصميما خاصا وأن يستغرق هذا التصميم وقته الكافي دون عجل، وما دام عرفات والقيادة الفلسطينية قد أثبتوا أنهم متواطئون مع الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال ، فإن إسرائيل تريد شعبا مسالما يرحب بالاحتلال والإذلال وهذه الدولة في المنظور الإسرائيلي يجب أن تكون دولة خالية من الإرهاب والفساد الذي ظهر خلال الإدارة الفلسطينية لأراضي الضفة والقطاع. ومن الواضح أن هذه المقولة تستخدم المقولات السابقة وأنها تلتف حول بعض الحقائق وتوظف بعض الحقائق الأخرى مثل ما أشاعته الولايات المتحدة في أروقة السلطة الفلسطينية .

المقولة التاسعة : حشد الإعلام الصهيوني طاقاته للوقوف ضد مرشح الرئاسة الفرنسية عن اليمين المتطرف لوبين واعتبره نذير شؤم على الحضارة الأوربية ومؤشرا، خاصة بعد تجربة هيدر في النمسا، على ارتفاع مكانة اليمين المعادي للسامية وقد أدت هذه الملاحظة إلى قلق بالغ في البيت الأبيض نقل إلى الحكومات الأوربية خاصة بعد أن أعلن في بعض الدول الأوربية عن تكوين أحزاب نازية جديدة. وقد أدت هذه المقولة إلى المساعدة بالفعل في إسقاط لوبين في فرنسا وتدخل دول أوربية عديدة في السياسات الفرنسية الداخلية قبيل انتخابات الإعادة في ٥ مايو٢٠٠٢، ورغم أن هذه الصورة التي تستدعي إلى الذاكرة مقارنة فورية بين جرائم إسرائيل في جنين وغيرها وبين الهولوكوست اليهودي، الذي تحيطه الحركة الصهيونية بالقداسة وتلهب به ضمائر الناخبين في أوربا حتى الآن لقهرهم على إسقاط كل من يعارض السياسات الصهيونية، فقد تمكن الإعلام الصهيوني من القفز على هذه المقارنة وتصوير اليمين الأوروبي على أنه خطر داهم على الحضارة الأوروبية دون أن يتوغل في رموز الماضي .

المقولة العاشرة : ركز الإعلام الصهيوني منذ بداية مايو٢٠٠٢ على أن العالم العربي يجب أن يختار بين الإرهاب الفلسطيني أوالسلام في المنطقة، فإذا كان راغبا حقا في السلام مع

إسرائيل فيجب أن يسهم معها في تقليم أظافر الإرهاب الفلسطيني وقد أسرعت الولايات المتحدة باتخاذ موقف مماثل لموقف إسرائيل دون تركيز كبير وطالبت العالم العربي بنفس المطالب .

ثانيا : أثر الإعلام الصهيوني على الدبلوماسية الأمريكية :

إذا قارنا الخط الإعلامي الصهيوني في المقولات السابقة تكشف لنا أن هذا الخط كان يسبق بأيام قليلة الموقف السياسي الأمريكي مما أحدث تطابقا كاملا بين الموقفين الأمريكي والإسرائيلي دون أن تكترث واشنطن لغليان الشارع العربي حيث صور الإعلام الصهيوني أيضا ذلك على أنه ظاهرة مؤقتة أملتها عواطف التواطؤ مع الإرهابيين الفلسطينيين، وهي على أية حال لا قيمة لها ما دامت لا تؤثر على المواقف الحكيمة للحكومات الحليفة العربية التي تنظر إلى المستقبل بأمل متجاوز أعمال الإرهاب الفلسطيني. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق: فيما يختلف الموقف الأمريكي عن الموقف الإسرائيلي، وهل المسافة الفاصلة بين الموقفين تسمح للقول بأن الولايات المتحدة ابتعدت قليلا حتى تفك الاندماج الكامل بين موقفها وموقف إسرائيل ؟

لقد قدم الإعلام الصهيوني المبرر للمواقف السياسية الأمريكية ، كما قدم لها التفسير فضلا عن أنه تابع هذه المواقف ودافع عنها بحسبان هذا الإعلام جزءا من النظام الإعلامي الأمريكي .

والواقع أن التطابق الكامل بين الإعلام الأمريكي والمواقف الأمريكية في معظم الأحوال خدع البعض فاعتقد أن هناك مسافة بين الجانبين، ولا بد أن ننبه قبل أن نقدم أمثلة محددة خلال الفترة موضوع الدراسة، إلى أنه ليس من المصلحة العربية أن يحدث التطابق بين الإعلام الصهيوني والمواقف الأمريكية وأنه يؤمل أن يظل الفارق بينهما ليسمح بجهد عربي في هذا القطاع، ولكننا لا يجوز أن نخدع أنفسنا وهوما يتضح من **عرض بعض الأمثلة** :

(١) إزاحة عرفات: هذا هدف أمريكي إسرائيلي،وقد مهد له الإعلام الصهيوني بالتركيز على أن عرفات ليس جادا في وقف الإرهاب، ولما حاصرته إسرائيل في رام الله أشار الإعلام إلى

عجزه عن القيادة. وخلط الإعلام بين الدولة الفلسطينية وزعامة عرفات، فأكد أن الدولة مطلوبة ولكن بقيادة أفضل وقد تعاصر الموقف الإعلامي مع الموقف الرسمي الإسرائيلي. أما الموقف الرسمي الأمريكي فقد وصل إلى نفس القناعة أحيانا واضطراب في أكثر الأحيان حتى خلال زيارة شارون لواشنطن. فخلال جولة وزير الخارجية الأمريكي في المنطقة ترك الباب مفتوحا وأدلى بتصريحات متضاربة ثم اضطر إلى لقاء عرفات بعد تمسك الشعب الفلسطيني والعالم العربي والاتحاد الأوربي بعرفات، وحاول الرئيس بوش أن يظهر مسافة بينه وبين شارون، فأعن أن عرفات ليس رأس الإرهاب وإن كان شارون هو رجل السلام ، وأنه يمكن التعامل معه لو بذل كل جهده لقمع الإرهاب وأنه يؤيد دولة ولكن خالية من الإرهاب والفساد .

(٢) *التحقيق في جرائم جنين* : بدأ الإعلام الصهيوني يرفض فكرة التحقيق أصلا ويهون من أثار الدمار ويبدي عطفه واحترامه للجيش الإسرائيلي ثم يقارن بين جرائم جنين وجرائم الروس والشيشان كما أسلفنا. ثم اتجه الإعلام الصهيوني إلى توريط عدد من قيادات حركة السلام الآن لنفي ارتكاب الجيش جرائم في الضفة الغربية مؤكدا أنها ضرورات حربية وسقوط الأبرياء فيها غير مقصود، وأن الجيش نفسه حريص على تبرئة ضمير الأمة خاصة بعد أن أبدت بعض الطوائف اليهودية انزعاجها من تصريحات زوار جنين. وفي خطوة ثالثة بدأ الإعلام الصهيوني يصب غضبه على كل من عبر عما رآه من مآس في جنين، ثم اتجه في خطوة رابعة إلى مهاجمة الأمم المتحدة والعالم العربي، مؤكدا أن الإرهاب الفلسطيني هوالذي اضطر الجيش إلى الدفاع عن الأمة وعندما شعرت واشنطن باتجاه الضغط الدولي إلى التحقيق قدمت هي نفسها مشروع القرار ٤٠٥ الذي حصل على إجماع الأعضاء. عند هذا الحد اتجه الإعلام ثانية إلى مهاجمة القرار وفكرة التحقيق وتقصي الحقائق ، مشيرا إلى أن هناك الكثير من الحقائق في الدول الأخرى يجب تقصيها أيضا وألح بأن الحروب ضد الإرهاب لا يجوز فيها التحقيق على نحو ما حدث في أفغانستان، ولذلك لم يكن صحيحا أن واشنطن كانت جادة في مناشدة شارون السماح للجنة بالعمل كما لم يشعر بالإحباط كما زعم عندما أصر

شارون على إلغاء مهمتها وغير الإعلام فورا موقفه المهاجم لكوفي عنان وامتدحه عندما قرر حل اللجنة .

(٣) *وقف إطلاق النار والانسحاب* : لعب الإعلام الصهيوني دورا واضحا في تشكيل الموقف الأمريكي الرسمي في واشنطن وفي الأمم المتحدة، فقد أكد أن للحملة العسكرية برنامجا محددا لا يجوز وقفه وأن الجيش سوف ينسحب فور انتهاء العملية وأنه لا معنى لوقف النار خلال العمليات. وإذا كان الرئيس بوش ظل يكرر أنه جاد في مطالبة شارون بالانسحاب ورفض شارون العلني فقد ترك ذلك الانطباع في العالم والإعلام الأمريكي بأن إسرائيل تتحدى واشنطن، ومرة أخرى بادر الإعلام الصهيوني إلى تأكيد تلاحم الموقفين ثم بدأ الموقف الأمريكي يعتدل صوب شارون فيقر بأنه سعيد بما تم من انسحابات (وهي وهمية) ويأمل في المزيد. معنى ذلك أنه رغم عدم احترام إسرائيل لقرارات مجلس الأمن التي تظاهرت واشنطن بأنها حريصة على تنفيذ إسرائيل لها ولم تخف إسرائيل أنها ستنسحب لكن بعد انتهاء أهداف العمليات العسكرية .

(٤) *موقف العالم العربي ومصير عملية السلام* : انصاع الموقف الأمريكي بسهولة للإعلام الصهيوني وطالب الحكومات العربية بأن تدين " الإرهاب " الفلسطيني وتتعاون مع إسرائيل في عملية سلام جديدة. وكانت الفكرة في البداية إسرائيلية وأعلن أن أمريكا لم توافق عليها ثم سارعت واشنطن إلى تبنيها وأوضحت أن المؤتمر المزمع سينشئ سلاما حقيقيا وفق تصور شارون، ولا تزال الفكرة بين واشنطن وإسرائيل .

الخلاصة :

(١) أسهم الإعلام الصهيوني والدبلوماسية الإسرائيلية في تحقيق قفزة تاريخية في الموقف الأمريكي بحيث صار مطابقا للموقف الإسرائيلي، كما أن موقف الإدارة مطابق لموقف الكونجرس في المساندة السياسية والمادية للتصرفات الإسرائيلية والضغط على عرفات والعالم العربي.

(٢) أن الإعلام الصهيوني قد قفز إلى الساحة بشكل مركز ولعب أدوارا مختلفة في تعديل الموقف الأمريكي ساعده على ذلك الاستعداد الظرفي لدى الإدارة والكونجرس للتحالف مع إسرائيل.

(٣) شن هذا الإعلام هجوما منسقا على العمليات الاستشهادية جعلت واشنطن تتخذ منها موقفا سياسيا حاسما لدرجة أن بوش تجاوز شرعيتها القانونية وملاءمتها السياسية وأفتى بأنها انتحار وخطيئة دينية وفق الشريعة الإسلامية. وانطلق الإعلام من هذه القضية لإذلال الحكومات العربية وقهرها على إدانتها، ثم منع إرسال المعونات الإنسانية إلى أسر الشهداء، حتى لو كانت من جمعيات أهلية أملتها المشاعر الإنسانية لدى الشعوب العربية .

(٤) تسبب الإعلام الصهيوني في رسم صورة سلبية على النحو السالف للعرب والمسلمين وعزز الشعور باضطهادهم ومطاردتهم، مما يجعل هذا الإعلام في مقدمة التحديات لجهود تحسين هذه الصورة .

(٥) من أهم أسباب استئثار الإعلام الصهيوني بالساحة الأمريكية غياب الإعلام المضاد والدبلوماسية العربية النشطة .

ورغم كل شئ فلابد من السعي لفك الارتباط بين أدوار الإعلام الصهيوني وتشكيل السياسة الأمريكية سواء بشكل مباشر أومن خلال صناع الرأي العام وقادته ، وما دام الإعلام فنا له تقنياته فلا بد من العمل في هذا المجال بأسلوب علمي منسق طويل الأجل .